مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٥) العدد (٢) ٢٠٢١
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (2) 2021

اللَّيلُ في شعر نُصَيبٍ بنِ رباحٍ

د. ماهر حبيب*

د. وهران حبيب**

أمجد علي***

(تاريخ الإيداع ٢١ /١٢ /٢٠٢٠. قُبِل للنشر في ٢/١١ /٢٠٢١)

□ **ملخّص** □

تهدِفُ هذهِ الدّراسةُ إلى تتبُّعِ ظاهرة اللَّيلِ في شِعرِ نُصَيبِ بنِ رباحٍ؛ وهو شاعرٌ منَ الشُّعراءِ الأغربةِ في العصر الأمويّ، ونحاولُ منْ خلالِها الكشفَ عنْ جملةٍ منَ الأبعادِ والدَّلالاتِ الَّتي أوحَتْ بِها صُوَرُ اللَّيلِ، فعبَّرَ منْ خِلالِها الشَّاعرُ عنْ إحساسِهِ بِالقهرِ والاغترابِ، ومثَّلَ عذاباتِ نفسِهِ اليائسةِ المُحطَّمةِ.

و منْ شأنِ البحثِ أنْ يقِفَ على مشاهدَ شعريَّةٍ ارتبطَتْ موضوعاتُها بِاللَّيلِ، فأوحتْ بِمعاناةِ الشَّاعرِ، وعبَّرَتْ عنْ طموحاتِهِ وآمالِهِ، ويسعى البحثُ إلى إبرازِ مقدرةِ الشَّاعرِ وبراعتِهِ في توظيفِ الصُّوَرِ، وتسخيرِ مقدرتِهِ اللُّغويَّةِ، واستغلالِ موروثِهِ الشّعريّ في الإيحاءِ بالأفكارِ والتَّعبيرِ عنِ الحالةِ الشُّعوريَّةِ والموقفِ النَّفسيّ.

الكلماتُ المفتاحيَّةُ: اللَّيل، اغتراب، نُصَيبٌ بنُ رباحٍ.

* أستاذ مساعد – كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة – قسم اللُّغة العربيَّة – جامعة طرطوس.

** أستاذ مساعد – كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة – قسم اللُّغة العربيَّة – جامعة تشرين.

*** طالب دراسات عليا (ماجستير) – كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة – قسم اللّغة العربيَّة – جامعة طرطوس.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٥) العدد (٢) ٢٠٢١
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (2) 2021

The Night in The Poetry of Noussaib Bin Rabah

Dr. Maher Habib*
Dr. Wahran Habib **
Amjad Ali ***

(Received 21/12 /2020. Accepted 11/2/2021)

□ ABSTRACT □

This study aims to track the phenomenon of night in the poetry of Noussaib bin Rabah. whom considered as one of the alienation poets in the Omayyad era, through it, we try to reveal a set of dimensions and connotations inspired by the night images, through which the poet expressed his sense of oppression and alienation, and embodied his hopeless and shattered torment.

The research will focus on poetic scenes whose themes are related to the night, which referred to the poet's suffering, and expressed his ambitions and hopes, the research seeks to highlight the poet's ability and ingenuity in incarnating images, harnessing his linguistic ability, exploiting his poetic legacy to simulate ideas, and express the emotional state and the psychological situation.
Key words: Night, Alienation, Noussaib bin Rabah

* Assistant Professor- Faculty of Arts and Humanities- Department of Arabic Language- Tartus University.
** Assistant Professor- Faculty of Arts and Humanities- Department of Arabic Language- Tishreen University.
*** Postgraduate Student- Faculty of Arts and Humanities- Department of Arabic Language- Tartus University.

المقدّمة:

لا يزالُ موضوعُ اللَّيلِ بصفتِهِ معطًى منْ معطياتِ الطَّبيعةِ يحظى بِحُضورٍ فاعلٍ في نتاجاتِ الشُّعراءِ وإبداعاتِهِمُ الفنّيَّةِ.

و يسعى هـذا البحثُ إلى دراسـةِ ظاهرةِ اللَّيلِ في شـعرِ نُصَيبٍ بنِ رَباحٍ أحـدِ الأغربةِ في العصرِ الأمَويّ، الَّذين تجرَّعُوا مـرارةَ ظـلمِ المجتمعِ الَّـذي تجاهـلَ إمكاناتِهِمْ وبطولاتِهِم، وأنكرَ ما يتَّصِفونَ بِهِ مـنْ سجايا خلقيَّةٍ، فلمْ يكنْ أبناءُ مجتمعِهِمْ يرونَ فيهِمْ أكثرَ منْ عبيدٍ يخدِمونَ سـادَتَهُمْ، ولا بُدَّ لِهـذهِ النَّظرةِ القاسيةِ أنْ تخلقَ إحساساً بالانفصالِ عنِ المجتمعِ فوجدَ في اللَّيلِ الملاذَ الآمـنَ لِبَثِّ الهمومِ، إذْ وجـدَ الشَّاعرُ فيهِ فضاءً رحْباً يُعبّرُ منْ خِلالِهِ عـنْ خلجاتِ نفسِهِ ومكنوناتِها، ويوحـي بِالرَّغبةِ في أنْ تنتهيَ عـذاباتُ نفسِهِ المحطَّمةِ البائسةِ الَّتي تلوَّنَتْ بِسوادِ اللَّيلِ، ليلِ الظُّلمِ والقهرِ الَّذي يحدُّ منْ طموحاتِهِ.

أهمّيَّةُ البحثِ وأهدافُهُ:

تكمُنُ أهمّيَّةُ هذا البحثِ في كونِهِ يدرُسُ ظاهرةَ اللَّيلِ في شِعرِ نُصَيبٍ بنِ رباحٍ بوصفِها ظـاهرةً ثريَّةً بالدّلالاتِ، ويهدِفُ البحثُ إلى الكشـفِ عـنْ هذهِ الدّلالاتِ، وذلكَ بِتسـليطِ الضَّوءِ عـلى أشـعارِ اللَّيلِ لدى نُصَيبٍ، والوقوفِ على معانيها وخصائصِها الفنّيّةِ.

منهجيَّةُ البحثِ:

يعتمدُ البحثُ الدّراسـةَ النّصّيَّةَ الَّتي تتَّخذُ منْ تحليلِ النُّصوصِ وسـيلةً لإظـهارِ بـواطـنِ الصُّـورةِ واللُّغةِ والمعاني المختلفةِ، وقدِ ارتكزتِ الدّراسةُ إلى المنهجِ التَّكامليّ الَّذي كانَ عمادَ البحثِ.

الدّراسةُ:

نصيبٌ بنُ رباحٍ؛ هـو: نصيبٌ بنُ رَبَاحٍ مولى عبدِ العزيزِ بنِ مـروانَ، وسُمّيَ نُصيباً المـروانيَّ تمييزاً لهُ عنِ الشَّـاعرِ نُصيبٍ الهاشميّ (الأصغر)[١] وكانَ شاعراً عبداً أسـودَ اللَّونِ ينتمي إلى فئةِ الأغربةِ السُّودِ، والأغربةُ كما عرَّفَهُمُ الدُّكتورُ يُوسُفُ خليف هم "السُّودُ الَّذينَ سرى إليهِمُ السَّوادُ منْ أمَّهاتِهِمُ الإماءِ "[٢] .

و تذكرُ المصادرُ أنَّ أمَّهُ (سلامة) كانَتْ سوداءَ نوبيَّةً وقعَ عليها سيّدُها فحملتْ نُصيباً ثمَّ اسـتعبدَهُ عمُّه بعدَ مـوتِ أبيهِ وباعَـهُ إلى عـبدِ العزيزِ بنِ مروانَ[٣] . وأمَّـا كنيتُهُ فهي أبـو الحَجْناءِ، والحَـجْناءُ ابنـتُهُ، كما يذكرُ الجاحظُ[٤]؛ وقدْ لُقّبَ بِالنُّصيبِ تعظيماً لَهُ[٥]. وأمَّا عـنْ ولادتِهِ فقدْ رجَّحَ جـامِعُ ديوانِهِ الدُّكتورُ داؤود سَلُّوم أنْ تكون سنةَ

---

[١] يُنظَرُ: السُّيوطيُّ، جلالُ الدّين: *المُزهِرُ في علومِ اللُّغةِ وأنواعِها*، شرحُ وتعليقُ: محمَّد أحمد جـاد المولى وعليّ البجاويّ ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبةُ دارِ التُّراثِ، القاهرةُ، الطَّبعةُ الثَّالثةُ، ج٢، (د . ت)، ص ٤٥٧.

[٢] خليف، يوسف: *الشُّـعراءُ الصَّـعاليكُ في العصـرِ الجاهلـيّ*، دارُ المـعارفِ بِمصرَ، الطَّبـعةُ الثَّانـيةُ ١٩٥٩م، ص ٦٢.

[٣] يُنظَرُ: الأصفهانيُّ، أبو الفرجِ: *الأغانـي*، تحقيقُ إحسان عبَّاس، دارُ صادرٍ، بيروتُ، ط٢، ج١، ٢٠٠٤م ص ٢١٤.

[٤] الجاحظُ، أبو عثمان عمرو بنُ بحرٍ: *البيانُ والتَّبيينُ*، تحقيقُ وشرحُ عبد السَّلام هارون، مكتبةُ الخانجيّ، القاهرةُ، الطَّبعةُ الخامسةُ ج١، ١٩٨٥م، ص ١٢٥.

[٥] *الأغاني*، ج١، ص ٢١٤.

(٤٤ هـ) في خـلافةِ معاويةَ[١]، بينَما اتَّفقَتْ مُعظمُ الرّواياتِ والأخبارِ على أنَّهُ توفّيَ سنةَ (١٠٨هـ)، ولكنَّها لمْ تُحدّدْ مكانَ وفاتِهِ ولا أينَ دُفِنَ[٢].

كـانَ نُصيبٌ " أسودَ خفيفَ العارضينِ ناتِئَ الحنجرةِ "[٣] ، و" شعرُهُ أبيضَ اللَّونِ"[٤]، وكان شاعراً فصيحاً حَسَنَ المَظهرِ، "كما عرفَ كيفَ يكونُ دائماً نقيَّ الثَّوبِ حسنَ الزّيّ"[٥].

و قـدْ أشـارَتِ الرّواياتُ إلى أنَّـهُ كـانَ ذا مكانةٍ متميّزةٍ عندَ خلفاءِ بني أميَّةَ، فقدْ أكثرَ منْ مدحِهِمْ في شِعرِهِ، كما أغدقُوا عليهِ العطايا، ولكنَّهُ عـاشَ حياةً ملؤُها البؤسُ والقهرُ بِسببِ لونِهِ الَّذي شكلَ لديهِ عقدةً لازمَتْهُ طيلةَ حياتِهِ، وكانَ لها بالغُ الأثرِ في شِعرِهِ، فقدْ كانَتْ عقدةُ اللَّونِ وراءَ اتّجاهِ شِـعرِهِ اتّجاهاً مُعيَّناً، ولِذا نراهُ يُركّزُ على اللَّونِ الأسودِ في أشعارِهِ، ويُقحِمُ رموزَ السَّـوادِ الَّتي منْ شأنِها أنْ تُبيّنَ حالَهُ السَّوداويَّةَ، وقدْ شغلَ اللَّيلُ حيّزاً لا بأسَ بِهِ في شـعرِهِ، وكـانَ اهتمامَ الشَّاعرِ بِاللَّيلِ جليّاً؛ نظراً لِلتَّشابُهِ بينَ سوادِ اللَّيلِ وسوادِ بشرتِهِ، لذلكَ نراهُ يتَّخذُ اللَّيلَ أداةً فنّيَّةً يُعبّرُ مِـنْ خِلالَها عـنْ همومِهِ وآلامِهِ، ويستثمِرُ قتامةَ اللَّيلِ وسوادَهُ للإيحاءِ بِظلمةِ الواقعِ، و سوادِ نفسِهِ الَّتي قهرَها الظُّلمُ، وأذلَّها الاضطهادُ، ولمْ يكنِ اللَّيلُ لِيشكّلَ وحدَهُ الصُّورةَ المظلمةَ الَّتي انتقاها نُصَيبٌ، فاللَّيلُ موضـوعٌ مـنْ موضوعاتِ تلكَ اللَّوحـةِ القاتمةِ، ولعلَّهُ العنصرُ الأكـثرُ فاعليَّةً، لكـنْ ثمَّةَ موضوعاتٌ تؤدّي دورَهـا في تصعيدِ إحساسِ الشَّاعرِ بِثقَلِ اللَّيلِ الَّذي يُرخي بِظلالِهِ عـلى الكونِ، فيلامـسُ داخلَ نفسِهِ الحزينةِ، وهنا يتجلَّى إبداعُ الشَّاعرِ في ترجمةِ أحاسيسِهِ منْ خلالِ مشاهدَ شعريَّةٍ تبرزُ تفرُّدَهُ في إعادةِ صياغةِ المعاني في ثوبٍ فنّيّ جديدٍ.

١- اللَّيلُ والطَّيفُ:

أكثرَ الشُّعراءُ مـن ذكرِ الطَّـيفِ في أشـعارِهِمْ، إذْ شغلَ خـيالُ المحبوبةِ تفكيرَ الشُّعراءِ المحبّينَ على اختلافِ عصورِهِمْ وانتماءَاتِهِمْ، فكلَّما عزَّ لقاءُ الحبيبِ، نرى طيـفَهُ يَطرُقُ مخيّلةَ الشَّاعرِ ليلاً، والطَّيفُ كما عرَّفَهُ ابنُ منظورٍ: " طَيَفَ: طافَ الخيالُ: مجيئُهُ في النَّومِ، والطَّيفُ: الخيالُ نفسُهُ، وقالَ: طافَ بِهِ الخيالُ طـوفاً: ألـمَّ بِهِ في النَّومِ".[٦]

و أمَّا الشَّريفُ المرتضيُّ فيعـرِّفُ الطَّـيفَ بقولِهِ: " هـوَ زَورُ الحبيـبةِ مـن غيرِ وعـدٍ يُخـشى مطلُهُ، ويُخافُ لَيُّه وفوتُهُ، واللَّذةُ فيهِ لمْ تُحتسبْ ولمْ تُرتَقَبْ".[٧]

و اللَّيل هـو الزَّمنُ الملائمُ لزيارةِ الطَّـيفِ، ولعلَّ الحرمانَ من لقاءِ الحبيبِ نهاراً هو السَّببُ الرَّئيسُ لطروقِ طيفِهِ ليلاً.

إنّ دلالةَ الطَّيفِ تختلفُ من شـاعرٍ لآخـرَ، كلٌّ حسبَ تجربتِهِ الخاصَّةِ، كما هي الحالُ عندَ الشُّعراءِ الأغربةِ، فقدْ عاشُـوا حياةً مختلفةً عن حـياة سواهُمْ منَ الشُّعراءِ إذْ عانَوا منَ الاضطهادِ والعبوديَّةِ، وهذا ما

---

[١] سلُّوم، داؤود: *شِعرُ نُصيبِ بنِ رباح*، مطبعةُ الإرشادِ، بغدادُ، ١٩٦٧م، ص ٥.

[٢] *الأغاني*، ج١، ص٢١٤.

[٣] *الأغاني*، ج١، ص ٢٢٤.

[٤] المصدرُ السَّابقُ نفسُهُ، ص ٢٢٥.

[٥] بدوي، عبدة: *الشُّعراءُ السُّودُ وخصائصُهُمْ في الشِّعرِ العربيّ*، دارُ قِباءَ، القاهرةُ، ٢٠٠١م، ص ١٢٤.

[٦] ابنُ منظورٍ، أبو الفضل جمالُ الدينِ أحمدُ بنُ مكرمٍ، *لسانُ العربِ*، ط١، دارُ صادرٍ، بيروتُ، (د . ت)، مادَّةُ (طَوَفَ)، ج ٩، ص ٢٢٥.

[٧] المرتضيُّ، الشَّريفُ، عليّ بن الحسين: *طيفُ الخيالِ*، تحقيقُ حسن كامل الصَّيرفيّ ومراجعةُ إبراهيمَ الأبياريّ، دارُ إحياءِ الكتبِ العربيَّةِ، ط١، ١٩٦٢م، ص ٥ – ٦.

جعلَهُمْ يقاسُونَ آلاماً خاصَّةً بِهِمْ، تمثَّلَتْ في إحساسِهِمْ بِالنَّقصِ تُجاهَ أترابِهِمْ مِنْ ذوي النَّسَبِ الصَّريحِ، فمنَ المعروفِ أنَّ هؤلاءِ الأغربةَ منْ أبناءِ الإماءِ الحبشيَّاتِ الَّذينَ لمْ يعترفْ آباؤهُمْ بِهِمْ، بلْ جعلُوهُمْ عبيداً، وحُرِمُوا أدنى حقوقِهِمْ؛ ولذلكَ كانَ منْ شأنِ هذا الحرمانِ أنْ يُولِّدَ في أنفسِهِمْ مشاعرَ السُّخطِ والغضبِ، لكنَّهُمْ لمْ يكونُوا يجرؤونَ على الإفصاحِ عمَّا يعتملُ في دواخلِهِمْ؛ ولذلكَ وجدُوا في اللَّيلِ متنفَّساً لِلتَّعويضِ عنْ حرمانِهِمْ، ومجالاً لِلتَّعبيرِ عنْ معاناتِهِمْ، وقدْ وجدُوا في زيارةِ الطَّيفِ ما يُرضي نوازعَ أنفسِهِمُ الَّتي تتوقُ إلى الحرّيَّةِ، وتتشوَّقُ إلى الإحساسِ بِالوجودِ، وها هو نُصَيبٌ بنُ رباحٍ يزورُهُ الطَّيفُ ليلاً فتتملَّكُهُ الحيرةُ، ويتعجَّبُ لِقطعِهِ تلكَ المسافةَ البعيدةَ، يقولُ[١] :

أيقظانُ أمْ هبَّ الفؤادُ لِطائفِ ... ألَمَّ فحيّا الرّكبَ والعينُ نائمَهْ

سرى منْ بلادِ الغورِ حتّى اهتدى لنا ... ونحن قريبٌ منْ عمودٍ سوادِمهْ

بنجدٍ وما كانتْ بعهدي رجيلةً ... و لا ذاتَ فكرٍ في سُرى اللّيلِ فاطمَهْ

واللهِ ما منْ عادةٍ لكِ في السُّرى ... سريتِ ولا إنْ كنتِ بالأرضِ عالمَهْ

ولكنّما مُثِّلتِ ليلاً لِذي الهوى ... فبِتُّ على خيرٍ وفارقْتِ سالمَهْ

فيا لكِ ذا وِدٍّ ويا لكِ ليلةً ... تجلّتْ وكانتْ بُردةُ العيشِ ناعِمَهْ

يفتتحُ الشّاعرُ أبياتَهُ بأداةِ الاستفهامِ (الهمزةِ) مُتسائلاً عن حالِهِ إنْ كانَ في اليَقَظةِ أمْ في المنامِ، فقدْ أصابَتْهُ الدّهشةُ بسببِ الزيارةِ المفاجِئةِ لِطيفِ المحبوبةِ الّذي ألقى عليهِ التّحيّةَ، فقدْ قطعَ الطَّيفُ كلَّ تلكَ المسافاتِ الَّتي تفصلُ الشَّاعرَ عنِ الحبيبةِ راغباً في زيارتِهِ، وقدِ استعارَ الشّاعرُ للطّيفِ صفةَ السَّيرِ ليلاً، ليوضّحَ لنا وجهتَهُ نحوَ الشّاعرِ الّذي فرحَ لهذهِ الزّيارةِ؛ فالطّيفُ لمْ يَسِرْ، وإنّما اختصرَ المسافةَ والزّمنَ بينَ الشّاعرِ وبينَ مَنْ يُحِبُّ، ونرى نُصيباً يلتفتُ مِنَ الغيبةِ في الحديثِ عنِ الطّيفِ إلى خطابِ المحبوبةِ لِيُشعرَنا بقربِها منْهُ وكأنّها شاخصةٌ أمامَهُ، ولقدْ كانَ ليلُ الشّاعرِ مفعماً بالإيجابيّةِ، إذْ إنّ الطّيفَ قدْ حملَ السّرورَ إلى قلبِ الشّاعرِ، وهيَ وظيفةُ الطّيفِ الإيجابيّةُ الّتي تخفّفُ عنِ الشّاعرِ آلامَ الواقعِ بسببِ اضطهادِ المجتمعِ، فغدا اللّيلُ هنا مُفرِحاً للشّاعرِ (فيا لكِ ذا وِدٍّ ويا لكِ ليلةٌ) وهذا ما جعلَ نُصيباً يشعرُ بذاتِهِ ويُحسُّ وجودَهُ، فحضورُ المحبوبةِ وإنْ كانَ طيفاً، يمنحُ الشّاعرَ الإحساسَ بالذّاتِ، وتحقيقِ الوجودِ المفقودِ في الواقعِ.

و تتفاوتُ دلالةُ الطّيفِ لدى الشّاعرِ نفسِهِ، وذلكَ تبعاً لاختلافِ الحالةِ الشّعوريّةِ الّتي يعيشُها فالطّيفُ عندَ نُصَيبِ بنِ رباحٍ لم يكنْ إيجابيّاً بالمطلقِ، بلْ يُمكنُ أنْ يكونَ مُحبِطاً مُؤرِّقاً وِفقاً لحالاتٍ شعوريّةٍ تنتابُ الشّاعر لحظةَ التّجربةِ الشّعوريّةِ، فيقول نُصَيبٌ:[٢]

---

[١] سلُّوم، داؤود: *شعرُ نُصيبٍ بنِ رباح*، ص ١٢٩.

الغورُ: تِهامةُ، عمودُ سوادمة: جبلٌ بنجدٍ، الرجيلةُ: القويّةُ على المشي، البُردةُ: الباردةُ.

[٢] سلُّوم، داؤود: *شِعرُ نُصيبٍ بنِ رَباح*، ص ١٠٨، ١٠٩ .

تأوّبني: رجعَ إليَّ وعادَني، هُدُوّاً: أوّلُ اللّيلِ، مَرُوعاً: خائفاً، الأينَقُ: جمعُ (ناقةٍ). الأكوارُ: جمعُ (كَورٍ) وهوَ الرّحْلُ بأداتِهِ. أو جماعةُ النّاسِ.

تأوّبَني طيفُ الخيالِ المؤرّقُ هُدُوّاً فهبَّ الآلِفُ المُتشوّقُ
مَروعاً فلمّا لمْ أجدْ غير فتيةٍ نيامٍ وأكوارٍ لديهِنَّ أيْنَقُ
تمنّيتُ أنَّ اللّيلَ حَولٌ وأنّني و زينبُ طولَ الحَولِ لا نتفرّقُ

قدْ باغتَ الطّيفُ الشّاعرَ بالزّيارةِ بدليلِ قولِهِ (هبَّ)، ونلحظُ التّضعيفَ الّذي حملَ معنى المبالغةِ في تأجيجِ أشواقِ الشّاعرِ وانفعالِهِ المفاجئِ، وإنّ هذا الطّيفَ قدْ أثارَ في نفسِ نُصَيبٍ الشّوقَ المتلهّفَ إلى لقاءِ المحبوبةِ، ولكنّ زيارةَ الطّيفِ كانتْ قصيرةً، فَسُرعانَ ما استيقظَ الشّاعرُ من حلمِهِ، ليجدَ نفسَهُ وسط صحبِهِ النّيامِ وعادَ إلى واقعِهِ الأليمِ في التّشرُّدِ والاغترابِ؛ ولذلكَ نجِدُهُ يتمنّى ما هوَ مستحيلُ التّحقُّق، وهو أنْ يكونَ اللّيلُ حَولاً كاملاً، يلتقي فيهِ محبوبَتَهُ زينبَ، ولا يتفرّقان أبداً، ويؤدّي الجِناسُ (حَول – الحَول) دورَهُ الإيقاعيَّ في الإيحاءِ بنغمةِ الإلحاحِ على أنْ يطولَ زمنُ اللّيلِ الّذي أضحى ملائماً لزيارةِ الطّيفِ ولقاءِ المحبوبةِ ولو في المنامِ.

إنّنا وبعدَ قراءتِنا للوحةِ الطّيفِ لدى نُصيبٍ بنِ رباحٍ، يُمكننا القول: إنّ دلالةَ الطّيفِ ووظيفتَهُ النّفسيّةَ لمْ تكنْ ثابتةً لدى الشّاعرِ، بلِ اختلفتْ وتباينتْ حسبَ تجربتِهِ الخاصّةِ، فقدْ رأينا الطّيفَ يؤدّي وظيفتَهُ الإيجابيّةَ الّتي جعلتْ الشّاعرَ يُحِسُّ الوجودَ ويَنشُدُ الذّاتَ المفقودةَ في الواقعِ، ولكنّنا التمسْنا في الوقتِ عينِهِ دلالةَ الطّيفِ المحبِطةَ الّتي لمْ تَعُدْ على الشّاعرِ إلّا بالأرقِ والعذاباتِ المستمرّةِ، وفي كلّ الأحوالِ مثّلَ الطّيفُ وسيلةً فنّيّةً للإيماءِ بالحالةِ الشّعوريّة لِلشّاعرِ.

٢ – اللّيلُ والهمومُ:

في اللّيلِ – زمنِ الهدوءِ والسّكينةِ – تَجِدُ الهمومُ طريقَها إلى النّفسِ الإنسانيّةِ؛ فاللّيلُ هوَ الوقتُ الملائمُ لِتسلُّلِ الهمّ والقلقِ إلى أعماقِ الذّاتِ، وخصوصاً إذا كانَتْ تلكَ الذّاتُ مثقلةً بالعذاباتِ نتيجةً لِواقعٍ قاسٍ عانتْهُ وسَئِمَتْ مرارتَهُ، كما هيَ حالُ شاعرِنا نُصيبٍ الّذي يقضي اللّيلَ مهموماً بِسببِ واقعِهِ الأليمِ؛ فغدا ليلُهُ مليئاً بالهمومِ والأوجاعِ، وقلّما كانَ اللّيلُ مبعثَ سرورٍ لديهِ، بلْ وجدَ فيهِ مصدراً للألمِ والأرقِ جرّاءَ ظروفٍ عانى منْها وتجرَّعَ مرارتَها.

وقدْ تعدّدتْ أسبابُ الهمّ والغمّ الّتي عاناها الشّاعرُ في ليلِهِ الكئيبِ، وكانَ طولُ اللّيلِ أبرزَ أسبابِ الهمّ لديهِ، فقدْ أدّى طولُ اللّيلِ إلى تكريسِ المعاناةِ النّفسيّةِ الّتي تعتملُ في نفسِ الشّاعرِ، ونُشيرُ هنا إلى أنَّ التّوقيتَ الزّمنيَّ لِلّيلِ لا يتغيَّرُ، ولكنَّ الهمومَ الّتي تُعانيها النّفسُ الشّاعرةُ هيَ الّتي تُلقي بِظلالِها النّفسيَّةِ على الذّاتِ فَتُشْعِرُها بامتدادِ اللّيلِ وطولِهِ؛ وذلكَ نظراً لإحساسِه بالذُلّ والمهانةِ، فَيَقولُ:[١]

[١] شِعرُ *نُصيبِ بنِ رَباح*، ص ٨٩. تنزّى: تقفّزَ. السِّرارُ: جمعُ سَرَرٍ: آخرُ ليلةٍ منَ الشّهرِ، والسِّرارُ الثّانيةُ: مناجاةُ الوداعِ وهوَ مصدرُ سَارَهُ مَسارَةً وسِراراً.

أَقُولُ وليلتي تَزدادُ طولاً أمَا لِلَّيلِ بعدَهُمُ نهارُ
جَفَتْ عينِي عنِ التَّغميضِ حتَّى كأنَّ جُفونَها عنْها قِصارُ
كأنَّ فؤادَهُ كرةٌ تنزَّى حذارَ البَينِ لو نفعَ الحَذارُ
يُرَوِّعُهُ السِّرارُ إذا رآهُ مخافةَ أنْ يكونَ بِهِ السِّرارُ

إنَّ معاينةً دقيقةً لِمفرداتِ الشَّاعرِ، تكشِفُ أمامَ المتلقِّي حجمَ الهمِّ والمعاناةِ الَّتي يُكابِدُها نُصَيبٌ في هذا اللَّيلِ، فليلتُهُ تطولُ وتطولُ؛ نتيجةَ الآلامِ الَّتي تعتملُ في نفسِهِ، وفي قولِهِ (و ليلتي تزدادُ طولاً) يَعكِسُ إحساسَهُ بشدَّةِ تباطؤِ الزَّمنِ الَّذي يوحي بِدورِهِ بالحالةِ النَّفسيَّةِ الكئيبةِ الَّتي يُحِسُّها الشَّاعرُ، فهذا اللَّيلُ الَّذي يقاسيهِ الشَّاعرُ، باتَ فضاءً زمنيَّاً لا ينتهي، ونراهُ يمتدُّ بِقسوتِهِ (تزدادُ طولاً) ممَّا يزيدُ الهمومَ والأوجاعَ.

و في استخدامِ الشَّاعرِ الاستفهامَ المنفيَّ (أما لِلَّيلِ بعدَهُمُ نهارُ؟) ما يُعبِّرُ عنْ أمنيتِهِ بِزوالِ اللَّيلِ وحُلولِ النَّهارِ بدلاً عنْهُ، فالنَّهارُ عندَ الشُّعراءِ الأغربةِ يُمثِّلُ الأملَ والخلاصَ منَ ظُلمةِ الواقعِ؛ ولِذا فإنَّ نُصيباً ينتظرُ النَّهارَ بِفارغِ الصَّبرِ علَّهُ يُبدِّدُ ليلَهُ الكئيبَ.

و إنَّنا نُدرِكُ معاناةَ الشَّاعرِ الَّذي لمْ يستطعِ النَّومَ (جَفَتْ عيني عنِ التَّغميضِ)، ونراهُ يلجأُ إلى التَّشبيهِ الَّذي زادَ الصُّورةَ وضوحاً وتآلُفاً، لِيُعبِّرَ عنْ قلقِهِ في هذا اللَّيلِ (كأنَّ جفونَها عنْها قِصارُ)، فكأنَّ الجفونَ لا تطالُ الأعينَ هنا، مِمَّا يوحي بِبقاءِ الشَّاعرِ ساهراً مُستيقظاً يُعاني ما يُعانيهِ، حالُهُ كحالِ الشُّعراءِ الأغربةِ الَّذينَ يُمضونَ ليلَهُمْ مهمومينَ بِسببِ واقعِهِمُ المريرِ، فاللَّيلُ لدى الأغربةِ قلَّما يكونُ وقتَ سكينةٍ وراحةٍ واستعادةِ نشاطٍ، إذْ باتَ اللَّيلُ لديهِمْ "مصدرَ التَّوتُّرِ والقلقِ إذْ يُقاسُونَ فيهِ أحزانَهُمْ فُرادى "[1].

و كانَ تزاحُمُ الهمومِ الَّتي تحرّكُ في نفسِ الشَّاعرِ ألمَ المعاناةِ والإحساسِ بِالشَّقاءِ سبباً في قضاءِ الشَّاعر اللَّيلَ ساهراً مؤرَّقاً فيقولُ:[2]

أَرِقَ المُحِبُّ وعادَهُ سَهَدُهْ لِطوارِقِ الهَمِّ الَّتي تَرِدُهْ
و ذكَرْتُ منْ رَقَّتْ لَهُ كَبِدِي و أبى فَلَيسَ تَرِقُّ لي كَبِدُهْ
لا قومُهُ قَومي ولا بلَدِي فَنَكونَ حِيناً جيرةً بَلَدُهْ
و وجدْتُ وَجْداً لمْ يكنْ أحدٌ قَبْلي لأجلِ صبابةٍ يَجِدُهْ

يَفتتِحُ الشَّاعرُ أبياتَهُ بالفعلِ (أَرِقَ) الَّذي جاءَ مُحمَّلاً بِطاقةٍ إيحائيَّةٍ تُنبي بالألمِ النَّفسيِّ وعدمِ القدرةِ على النَّومِ، كما جاءَ فِعلُ الأرقِ مُحَدِّداً النَّسقَ الزَّمنيَ بِاللَّيلِ، وتقودُنا عبارةُ (وعادَهُ سَهدُهْ) إلى إدراكِ حقيقةِ أنَّ السُّهدَ والقلقَ لمْ

---

[1] شحادة، عبدُ العزيزِ محمَّدُ: *الزَّمنُ في الشِّعرِ الجاهليِّ*، المكتبةُ الوطنيَّةُ، مصرُ، ١٩٩٥م ص ٢١١.

[2] *شِعرُ نُصَيبِ بنِ رباح*، ص ٨١.

طوارقُ الهمِّ: ما يَطرُقُهُ ليلاً منَ الهُمومِ، وجدْتُ وجداً: اشتقْتُ اشتياقاً، الصَّبابةُ: الشَّوقُ والحبُّ.

يكونا جديدَين في ليلِ الشَّاعرِ، فهما يتجدَّدانِ في كلّ ليلةٍ، ويُفصِحُ نُصَيبٌ عنْ سببِ الأرقِ هنا وهوَ الهمُّ (لِطوارقِ الهمّ الَّتي تَرِدُهْ)، ففي لفظةِ (طـوارِقِ) دلالةٌ على اجتماعِ الهمومِ الَّتي أمرَّتْ نفْسَ الشَّاعرِ، ناهيكَ عمَّا يشي بِهِ فِعلُ الطَّرْقِ مِـنْ قوةِ تأثيرٍ تركَتْ أثرَهـا في الـذَّاتِ الشَّاعرةِ.

و يَذكُـرُ الشَّـاعرُ محبوبَتَهُ الَّتي قابلَتْ حُبَّهُ بِالرَّفضِ، فَمِـنْ خِـلالِ الفِعلَينِ (رقَّتْ – أبى) ترتَسِمُ أمامَ المُتلقّي صورةٌ موشَّاةٌ بِألوانِ الحُزنِ والألمِ؛ بِسببِ بُعدِ الحبيبةِ الَّتي صدَّتِ الشَّاعرَ وتركتهُ أسيرَ الهمومِ، يُقاسي الأرقَ والعذاباتِ، " فَبِمـقدارِ تَلَبُّدِ الهـمومِ في حنايـا النَّفْسِ يتجسَّدُ اللَّيلُ الَّـذي يُزايِـلُ فِـيهِ النَّـومُ عـينَ المؤرَّقِ المسهَّدِ"[١]، ونُضيفُ إلى ذلكَ، إيقاعَ (القافِ) في (أرِقَ، طـوارِق، رقَّتْ، تَرِقُّ) الَّذي يشي منْ خِلالِ جرْسِهِ الإيقاعيّ الشَّـديدِ[٢]، بِقلقِ الشَّاعرِ واضطرابِهِ في هذا الزَّمنِ اللَّيليّ الَّذي كانَ باعثاً لِلهمّ، كما باتَ مُنطَلَقاً لِأشواقِ الشَّاعرِ وأحزانِهِ الَّتي فاقتْ كلَّ شوقٍ، فـقدْ كـانَ مُتفرّداً في حُـبِّهِ الَّذي لمْ يسبقْهُ إليهِ أحَدٌ، وهي مبالغةٌ تشـيرُ إلى حـجمِ المعاناةِ وغلبةِ الحنينِ اللَّذينِ اسـتقرَّا في شِغافِ قلبِهِ، ونلحظُ في البيتِ الأخيرِ تكـراراً (وجدتُ، وجداً، يجدُهُ) الَّذي لمْ يأتِ بِهِ الشَّـاعرُ عبثاً وإنَّما حمَّلَهُ جوهرَ معاناتِهِ؛ فكانَ الإيقاعُ نابضاً بانفعالاتِ الشَّاعر المتوتّرِ.

قدْ تبيَّنَ لنا منْ خلالِ أشعارِ نُصَيبٍ السَّابقةِ أنَّ اللَّيلَ كـانَ زمـناً باعثاً على الهـمّ موحياً بِالقلقِ والاضطرابِ الَّذي أرَّقَ الشَّـاعرَ وجعلَهُ يُحِـسُّ المعاناةَ، فغدا اللَّيلُ مُعادِلاً فنّيّاً لِلهمومِ والآلامِ الَّتي يُقاسيها الشَّاعرُ.

٣- اللَّيلُ والفِراقُ:

لقدْ شـكَّلَ الفِراقُ سـبباً بارزاً لآلامِ الشَّـاعرِ وقهرِهِ النَّفسيّ؛ لأنَّ هذا الشَّاعرَ الغرابَ يسعى دائماً إلى الحـبّ والاتّصالِ بالآخرِ ويدأبُ إلى إثباتِ ذاتِهِ وتحقيقِ وجودِهِ، وإنَّ الزَّمـنَ اللَّيليَّ – بِمـا يوحي بِـهِ منْ كآبةٍ وقتامةٍ – يُعمّقُ الإحساسَ بِالفِراقِ الباعثِ على الحزنِ والألمِ.

ولِلفِراقِ أثرٌ واضحٌ في حياةِ نُصَيبٍ بنِ رباحٍ الَّذي قالَ:[٣]

كأنَّ القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغدى بِليلى العامِريَّةِ أو يُراحُ
قطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ تُجاذِبُهُ وقدْ عَلِقَ الجَناحُ
لَها فَرْخانِ قدْ عَلِقا بِوكْرٍ فعُشُّهُما تُصَفِّقُهُ الرِّياحُ

---

[١] فالح، جليل رشيد: *اللَّيلُ في الشِّعرِ الجاهليّ*، مجلَّةُ آدابِ الرَّافدَينِ، العددُ (٩)، ١٩٧٨م، ص٥٤٢.

[٢] يُنظرُ: أنيس، إبراهيم: *الأصواتُ اللُّغويَّةُ*، مكتبةُ نهضةِ مصرَ، ط١، (د . ت)، ص ٧٣- ٧٤.

[٣] سلُّوم، داؤود: *شِعرُ نُصَيبِ بنِ رَباح*، ص ٧٤.

عزَّها: حَبَسَها، الشَّرَكُ: الفخُّ، نصَّا: نصَبَا أعناقَهُما.

هناكَ اختلافٌ في نِسبةِ هـذهِ الأبياتِ، فالبيتانِ الأوَّلُ والثَّاني وردا في الأغـاني لمجـنونِ ليلى (يُنظرُ): الأغاني، ج٢، ص٤٨، والأبياتُ السَّابقةُ وردَتْ في معجمِ الأدباءِ ج١٩، ص ٢٣٢ لِنُصَيبِ بنِ ربـاحٍ وأكَّدَ التَّبريزيُّ نِسبتَهُما لِنُصَيبٍ في شرحِ الحماسةِ ج٣، ص٢٦٨، وقدْ أوردَ د. داؤود سلُّوم الَّذي جمعَ شِعرَ نُصَيبٍ هـذهِ الأبياتَ في ديوانِهِ وأشـارَ إلى الاخـتلافِ في نسـبةِ الأبياتِ (يُنظرُ): شِعرُ نُصَيبِ بنِ رباحٍ، داؤود سلُّوم، ص١٧٤.

إذا سَمِعَا هُبوبَ الرّيحِ نصَّا و قدْ أودى بِهِ القدَرُ المُتاحُ
فلا في اللَّيلِ نالَتْ ما تُرجّي و لا في الصُّبحِ كانَ لها بَرَاحُ

لقدْ شبَّهَ الشَّاعرُ قلبَهُ بالقطاةِ الَّتي وقعَتْ في الشَّرَكِ مُحاولةً العودةَ إلى صِغارِها، وهوَ بِذكرِهِ (القطاةَ) إنَّما يُسقِطُ حالَهُ عليها، فهيَ المُعادِلُ الموضوعيُّ للشَّاعرِ المُعذَّبِ، وما الرّيحُ الَّتي تضربُ عُشَّ الفِراخِ هنا إلَّا إيحاءٌ بِجملةٍ منَ العواملِ الخارجيَّةِ الَّتي حتمتِ الفراق بين الشَّاعر والمحبوبةِ، فكانتْ سبباً في إحساسِ الشَّاعرِ بالهمّ واللَّوعةِ، ومنْ خلالِ عبارةِ (و قدْ عَلِقَ الجَناحُ) نستشعرُ العجزَ الَّذي أصابَ الشَّاعرَ في تِلكَ اللَّيلةِ، (فالجناحُ) هُوَ وسيلةُ الطَّيرانِ والانطلاقِ نحوَ الفضاءِ، ولكنَّ (الجناحَ) عندَما عَلِقَ هنا قيَّدَ حركةَ الشَّاعرِ وأسَرَ حرِّيَّتَهُ، وفي قولِ نُصَيبٍ (فلا باللَّيلِ نالتْ ما ترجّي ولا في الصُّبحِ كانَ لها بَراحُ) تتوضَّحُ خيبةُ الشَّاعرِ في تحقيقِ ما يصبو إليهِ، إذْ وصلَ بِهِ الإحباطُ منتهاهُ، ويغدو اللَّيلُ هنا ليلاً نفسيَّاً يتجاوزُ حدودَ الزَّمنِ، فيمتدُّ إلى ما لا نهاية، فلا يستطيعُ الصُّبحُ بِكلّ ما فيهِ منْ إشراقٍ تبديدَ تلكَ الظلمةِ الَّتي تغلغلتْ في أعماقِ الشَّاعرِ، لأنَّهُ لا يحملُ تباشيرَ الانعتاقِ والخلاصِ منَ العبوديَّةِ.

و كأنَّ نُصَيباً في هذا المشهدِ لا يُريدُ أنْ يُصدِّقَ خبرَ فِراقِ المحبوبةِ وكأنَّهُ " هاجسٌ كريهٌ أرادَ أنْ يُبعِدَهُ عنْ خاطرِهِ، وإنَّهُ لفي هذا الصِّراعِ بينَ هاجسٍ مُخيفٍ وأمَلٍ في بُطلانِهِ حتَّى ينجليَ الأمرُ عنْ حقيقةِ الفِراقِ فَيَنْحَلُّ الصِّراعُ في نفسِهِ إلى خيبةِ أملٍ وشُعورٍ بالضَّياعِ".(١)

و قدْ وجدَ الشَّاعرُ في مشهدِ القطاةِ المُلَوَّعةِ بِفِراقِ صِغارِها ما يُمثِّلُ إحساسَهُ بِاللَّوعةِ والألمِ والسَّعيِ في الحياةِ، فهوَ منِ افتقدَ الأمانَ، ومُنِيَ بِفراق الطّموحاتِ والأهدافِ في تحقيقِ الذَّاتِ.

و نرى اللَّيلَ قدْ أصبحَ رمزاً لِمرورِ الزَّمنِ وتعاقُبِ الأيَّام واللَّيالي الَّتي تُمثِّلُ استمراريَّةَ المعاناةِ والآلامِ، و" إنَّ الحديثَ عنْ مُضِيّ اللَّيالي وانقضائِها ما هو إلَّا إفناءٌ للإنسانِ وقهرٌ لَهُ "(٢)، وقدْ ذكرَ شاعرُنا اللَّياليَ الَّتي تُوحي بِالتَّناهي والتَّلاشي الَّذي يُعبّرُ عنْهُ في أشعارِهِ، فها هوَ ذا يشكو مرورَ اللَّيالي دونَ رؤيةِ محبوبتِهِ، فيقولُ:(٣)

تمرُّ اللَّيالي والشُّهورُ ولا أرى مرورَ اللَّيالي مُنسِياني ابنةَ الغمرِ
تقولُ صِلينا واهجرينا وقدْ ترى إذا هجرَتْ إلاَّ وصالٌ مع الهجرِ
فلمْ أرضَ ما قالَتْ ولمْ أبْدِ سُخطةً وضاقَ بِما جمجمْتُ منْ حُبّها صدري

لقدْ عبَّرَ الشَّاعرُ عنْ مرورِ الزَّمنِ بمفردةِ (اللَّيالي)، فلمْ يَقُلِ (الأيَّامَ)، ولعلَّ الصِّبغةَ اللَّونيَّةَ الماثلةَ في (اللَّيالي) توحي بحالِ الشَّاعرِ، وتُبيّنُ ما أصابَهُ منْ ألمٍ بِسببِ بُعدِ المحبوبةِ الَّذي جعلَهُ يُحِسُّ القهرَ ويُقاسي العذابَ.

و تبدو لفظةُ (اللَّيالي) أشملَ منَ (الأيَّامِ)، وأفضلَ تعبيراً عنْ حالِ الشَّاعرِ النَّفسيَّةِ، ويُمكنُ أنْ نقرأَ في القرآنِ الكريمِ ما يدلُّ على ذلكَ في قولِهِ تعالى: "و الفجرِ ۞ وليالٍ عشرٍ"(١) فقدْ عبَّرَ اللَّهُ سُبحانَهُ وتعالى عنِ الأيَّامِ

(١) إسماعيل، عزُّ الدِّين: *التَّفسيرُ النَّفسيُّ للأدبِ*، دارُ الفكرِ اللُّبنانيّ، الطَّبعةُ الأولى، ١٩٩٣م، ص٩٢.

(٢) أحمد، عدنانُ وعثمان، مازنُ أحمد: *القهرُ في الشِّعرِ الجاهليّ*، مجلَّةُ دراساتٍ في اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها العددُ التَّاسعَ عشرَ، ٢٠١٤م، ص ١٥٦.

(٣) سلُّوم، داؤود: *شِعرُ نُصَيبِ بنِ رباح*، ص ٩٣. لمْ أبدِ سُخطةً: لمْ أظهرْ سخطاً، جمجمتُ: لمْ أوضحْ كلامي منَ البكاءِ أو الحقدِ.

باللَّيالي ولَربَّما في هذا تعظيمٌ للَّيالي وتأكيدٌ على قوَّةِ تأثيرِها بِما تحمِلُهُ منْ ظلمةٍ وسوداويَّةٍ؛ وبهذا المعنى تُصبِحُ (اللَّيالي رمزاً لِلغلَبةِ والقهرِ الَّذي يودي بالحياةِ ليلةً بعدَ ليلةٍ، ونرى نُصَيباً يلجأُ إلى التَّكرارِ (تمرُّ اللَّيالي، مرورَ اللَّيالي) الَّذي منْ شأنِهِ أنْ يُعمِّقَ الإحساسَ بِمُضيِّ الزَّمنِ الَّذي يَشي باستمرارِ المعاناةِ الَّتي يُكابِدُها الشَّاعرُ، وفي (تمرُّ، مرورَ) ما يُشعرُنا بِقوَّةِ عاطفةِ الشَّاعرِ فكأنَّ امتدادَ الزَّمنِ، وتعاقُبَ اللَّيالي يُغيّرانِ كلَّ شيءٍ إلَّا حبَّ محبوبته فهو باقٍ ومتأصّلٌ في قلبِ الشَّاعر. ولعلَّ الطِّباقَ في (صِلينا – اهجرينا)، (الوِصال – الهجر) منْ شأنِهِ الإيحاءُ بِحالِ الشَّاعرِ المضطربةِ في هذا اللَّيلِ، كما يقودُنا الفعلانِ (ضاقَ، جمجمتُ) إلى إدراكِ الألمِ المُحتبَسِ داخلَ نفسِهِ المقهورةِ بِسببِ بُعدِ المحبوبةِ.

قدْ تبيَّنَ لنا منْ خلالِ قراءتنا لأشعارِ نُصَيبٍ السَّابِقةِ أنَّ اللَّيلَ باتَ مرآةً تعكِسُ عذاباتِ الشَّاعرِ وما يعتري نفسَهُ منْ آلامٍ جرَّاءَ بُعدِ المحبوبةِ وفِراقِها، وقدْ أصبحَ اللَّيلُ رمزاً منْ رموزِ الفقْدِ والقهْرِ والكآبةِ.

٤- اللَّيلُ والاغترابُ:

كانَ لِحياةِ الاضطهادِ والعبوديَّةِ – الَّتي عاشَها شاعرُنا – وقعُها وأثرُها في نفسِهِ المعذَّبةِ، إذْ عاشَ حياةً يملؤُها القهرُ والتَّهميشُ، وهوَ الَّذي لَطالَما سعى إلى الاندماجِ في بوتقةِ الجماعةِ، مُحاوِلاً إثباتَ ذاتِهِ لِتحقيقِ الاتّصالِ بالنَّسَقِ المجتمعيّ، إلَّا أنَّهُ قُوبِلَ بِالرَّفضِ والقمعِ في كلّ محاولةٍ قامَ بِها، فعاشَ مسحوقاً منبوذاً يرزحُ تحتَ وطأةِ العبوديَّةِ؛ ممَّا أدَّى إلى إحساسِهِ بالاغترابِ*[٢] وسطَ مُحيطِهِ الاجتماعيّ، لكنَّهُ لمْ يستسلمْ، بلْ وجدَ في فنِّهِ الشّعريّ تعويضاً عنْ واقعِهِ المظلمِ "فهوَ يحاولُ التَّحرُّرَ حتَّى لو كانَ الفشلُ مصيرَهُ"[٣] وكانَ للَّيلِ وظيفتُهُ الفنّيَّةُ في التَّعبيرِ عنِ اغترابِهِ لِما يوحي بِهِ منْ معاني القتامةِ والسَّوادِ.

لقدْ كانَ اللَّيلُ منبرَ الشَّاعرِ الغرابِ الَّذي صرخ عبرَهُ صرخةَ الاغترابِ الممزوجِ بِالألمِ فقدْ أحسَّ بِفقدانِ الوجودِ بِسببٍ منَ المعاناةِ الَّتي أمرَّتْ ذاتَهُ وجعلَتْها تستشعرُ الاغترابَ، وقدْ أحسَّ الشَّاعرُ أنَّهُ مقيَّدٌ ضمنَ حدودِ الزَّمنِ، غريبٌ مُبعَدٌ عنِ الواقعِ، فيشعُرُ بِذاتِهِ مهمَّشةً لا تقدرُ على التَّكيُّفِ معَ محيطِها، وقدْ كانَ للَّيلِ بِسوادِهِ دلالاتُهُ التَّشاؤميَّةُ الَّتي تُثقِلُ الذَّاتَ بِمعاني الاغترابِ، فباتَ ليلُ الشَّاعرِ مختزِناً الآلامَ والحُرقةَ النَّفسيَّةَ.

و يُحسُّ نُصَيبٌ الاغترابَ في ظلمةِ اللَّيلِ، ونراهُ يُسقِطُ غربتَهُ على طائرِ الحمامِ الَّذي باتَ مُعادِلاً اجتماعيًّا لِلشَّاعرِ، فقدِ استثمرَ نُصَيبٌ وحدةَ الحمامةِ لِنفسِهِ وشعورِهِ بالاغترابِ ليلاً، فيقولُ:[٤]

لقدْ هتفتْ في جُنحِ ليلٍ حمامةٌ على فَنَنٍ وَهْناً وإنّي لَنائِمُ

---

[١] *الفجر*، الآيةُ (١، ٢).

[٢] * – تناولَتْ دراساتٌ عديدةٌ مفهومَ الاغترابِ، وهوَ ما يحملُ معانيَ عديدةً أبرزُها الغربةُ بينَ البشرِ. (يُنظَرُ) شاخت، ريتشارد، الاغترابُ، ترجمةُ كامل يوسف حسين، المؤسَّسةُ العربيَّةُ للدِّراساتِ والنَّشرِ، بيروتُ، ١٩٨٠م، ص ٦٣.

[٣] مجاهد، مجاهد عبدُ المنعم: *الإنسانُ والاغترابُ*، سعدُ الدّينِ للطّباعة والنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٨٥ م ، ص٨١.

[٤] سلُّوم، داؤود: *شعرُ نُصَيبِ بنِ رباح*، ص ١٢٤.

جُنْحٌ: في وقتِ اللَّيلِ، وَهْناً: نِصْفُ اللَّيلِ أو بُعَيدَهُ، ذو صبابةٍ: ذو شوقٍ.

فَقُلْتُ اعتذاراً عِندَ ذاكَ وإنَّني لِنفْسي ممَّا قدْ رأتْهُ لَلائمُ
أأزعُمُ أنّي هائمٌ ذو صَبابةٍ لِسُعدى ولا أبكي وتبكي الحمائمُ
كذبْتُ وبيتِ اللَّهِ لو كنْتُ عاشقاً لَما سَبَقَتْني بالبُكاءِ الحمائِمُ

لقدْ بَدَأ الشَّاعرُ أبياتَهُ بِالفِعلِ (هتفَتْ) إشارةً إلى صوتِ الحمامِ، فالحمامةُ الَّتي تهتِفُ في اللَّيلِ هنا، ما هي إلَّا الشَّاعرُ الحزينُ الَّذي يَئِنُّ تحتَ وطأةِ الغربةِ، وإنَّ حالةَ الشَّاعرِ النَّفسيَّةَ في هذا اللَّيلِ قدْ أضفَتْ على هتافِ الحمامةِ لوناً منَ الحزنِ والكآبةِ، وهي الَّتي جَعلَتْ صوتَ الحمامِ هنا بكاءً، والحمامةُ " إنَّما لها أصواتُ سَجْعٍ لا تُفهَمُ فَيجعلُهُ الحزينُ بكاءً ويجعلُهُ المسرورُ غناءً"[1]، والشَّاعرُ في هذا المشهدِ جعلَ صوتَ الحمامِ بُكاءً عَلَّهُ احتاجَ منْ يُشاركُهُ البكاءَ والغربةَ، وقدْ جاءَ الزَّمنُ اللَّيليُّ ليكونَ ملائماً لِمشاعرِ الحزنِ والفَقْدِ، فاللَّيلُ يكتنِزُ دِلالاتٍ نفسيَّةً توحي بِمعاني الفَقْدِ والغربةِ. و نرى الشَّاعرَ يَعتذِرُ ويُقِرُ بالتَّقصيرِ أمامَ بُكاءِ الحمامةِ الَّتي يراها أشدَّ وفاءً مِنْهُ، فشاعرُنا لمْ يقُلِ الشِّعرَ عبثاً، ولمْ يُعبّرْ بِهذهِ الصُّورِ لِمجرّدِ الوصفِ والتَّعبيرِ، بلْ كانَ كلامُهُ مُتنَفَّساً وراحةً في غربتِهِ المريرةِ؛ ولذلكَ نراهُ يستنكرُ وفاءَهُ لِمحبوبتِهِ؛ لأنَّ بكاءَ الحمامةِ قدْ فاقَ بكاءَهُ، وكأنَّهُ يرغبُ في تصعيدِ الحزنِ والبكاءِ ليكونا منسجمينِ معَ حالتِهِ الشُّعوريَّةِ.

و بعدُ، فقدْ كانَ للَّيلِ أثرُهُ النَّفسيُّ الَّذي ظهرَ جليّاً منْ خلالِ شِعرِ نُصَيبِ بنِ رباحٍ، الَّذي أحسَّ الوحدةَ والوحشةَ زمنَ اللَّيلِ؛ ممَّا جعلَه يعيشُ اغتراباً عبَّرَ عنْهُ منْ خلالِ أشعارِهِ الَّتي باتَتْ صورةً للذَّاتِ تفصِحُ عنْ أحولِها، وتعبّرُ عنْ آلامِها.

خاتمة:

شغلَ اللَّيلُ حيّزاً في شعرِ نُصَيبٍ بنِ رَباحٍ، فكانَ أداةً فنّيَّةً تفصِحُ عنْ أحوالِ النَّفسِ المعذَّبةِ، الَّتي مُنِيَتْ بزيارةِ الطَّيفِ، فابتهجَتْ تارةً، وأُحبِطَتْ تارةً أخرى، وغدا اللَّيلُ وجهاً آخرَ لِلذَّاتِ الشَّاعرةِ يفصحُ الشَّاعرُ منْ خلالِها عنْ همومِهِ وآلامِهِ، ويمثّلُ عمقَ إحساسِهِ بِالفراقِ في تلكَ اللَّيالي الطَّويلةِ الَّتي قضاها يائساً متحسّراً على فقدِ الوصالِ بِمنْ يُحبُّ، كما شكَّلَ اللَّيلُ وعاءً فنّيّاً لتصعيدِ الإحساسِ بِالقهرِ والاغترابِ، إذْ غدا رمزاً لِحياةِ الشَّاعرِ الَّتي لمْ تعرفْ سوى الألمِ والعذابِ، ولكنَّهُ لمْ يستسلمْ، ولمْ تعرفْ روحُهُ الاستكانةَ. فقدْ وجدَ في فنّهِ الشّعريّ متنفَّساً لِلذَّاتِ المكلومةِ، فجالَ بِخيالِهِ الشّعريّ، وصاغَ لوحاتٍ فنّيَّةً في اللَّيلِ تنوَّعَتْ فيها الصُّورُ والألفاظُ والمعاني، وتعدَّدَتْ الأساليبُ التَّعبيريَّةُ متوخّياً إيصالَ معاناتِهِ، والإيماءَ بِطموحاتِهِ، فكانَ شعرُهُ في اللَّيلِ مرآةً لِنفسِهِ المحطَّمةِ الَّتي لُوّعَتْ بِالظُّلمِ والاضطهادِ، وتاقَ صاحبُها إلى الانعتاقِ منَ العبوديَّةِ.

---

[1] الأندلسيُّ، ابنُ عبدِ ربِّه: *العِقدُ الفريدُ*، تحقيقُ أحمد أمين، إبراهيم الأبياري، عبد السَّلام هارون، قدَّمَ لهُ عمر بن عبد العزيز تدميريّ، دارُ الكتابِ العربيّ، ط، ١٩٨٢م، ج٧، ص ٢٦١.

المصادرُ والمراجعُ

- *القرآنُ الكريمُ.*

١- ابنُ منظورٍ، أبو الفضل جمال الدّين أحمد بن مكرم: *لسانُ العربِ*، دارُ صادرٍ، بيروتُ، ط١، ج٩، (د . ت).

٢- أحمد، عدنان وعثمان، مازن أحمد : *القهرُ في الشّعرِ الجاهليّ*، مجلّةُ دراساتٍ في اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها، العددُ (١٩)، ٢٠١٤م.

٣- إسماعيل، عزّ الدّين: *التَّفسيرُ النَّفسُ للأدبِ*، دارُ الفكرِ اللُّبنانيّ، ط١، ١٩٩٣م.

٤- الأصفهانيُّ، أبو الفرجِ: *الأغاني*، تحقيقُ إحسان عبَّاس، دارُ صادرٍ، بيروتُ، ط٢، ج١، ٢٠٠٤م.

٥- الأندلسيُّ، ابنُ عبدِ ربّهِ: *العقدُ الفريدُ*، تحقيقُ أحمد أمين، إبراهيم الأبياري، عبد السَّلام هارون، قدَّمَ لهُ عمر بن عبد العزيز تدميريّ، دارُ الكتابِ العربيّ، (د. ط)، ج٧، ١٩٨٢م.

٦- أنيس، إبراهيم: *الأصوات اللّغويّة*، مكتبة نهضة مصر، ط١، (د . ت).

٧- بدوي، عبدة: *الشُّعراءُ السُّودُ وخصائصُهمْ في الشّعرِ العربيّ*، دارُ قِباء، القاهرة، ٢٠٠١م.

٨- التَّبريزيُّ، الخطيبُ، أبو زكريّا يحيى بن علي: *شرحُ ديوانِ الحماسةِ لأبي تمَّامٍ، كتبَ حواشيَهُ غريد الشَّيخ*، وضعَ فهارسَهُ العامَّةَ أحمد شمس الدّين، دارُ الكتبِ العلميَّةِ، بيروتُ، لبنانُ، ج٣، ١٩٧١م.

٩- الجاحظُ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيانُ والتَّبيينُ، *تحقيقُ وشرحُ عبد السَّلام محمَّد هارون*، مكتبةُ الخانجي، القاهرةُ، الطَّبعةُ الخامسةُ، ج١، ١٩٨٥م.

١٠- الحَمَويُّ، ياقوتُ: *معجمُ الأدباءِ*، دارُ الكتبِ العلميَّةِ، بيروتُ، لبنانُ، ج١، ١٩٧١م.

١١- خليف، يوسُفُ: *الشُّعراءُ الصَّعاليكُ في العصرِ الجاهليّ*، دارُ المعارفِ، مصرُ، الطَّبعةُ الثَّانيةُ، ١٩٥٩م.

١٢- سلُّوم، داؤود: *شعرُ نُصَيبِ بنِ رباحٍ*، مطبعةُ الإرشادِ، بغدادُ، ١٩٦٧م.

١٣- السُّيوطيُّ، جلال الدّين: *المُزهِرُ في علومِ اللُّغةِ وأنواعِها*، شرحُ وتعليقُ: محمَّد أحمد جاد المولى وعليّ محمَّد البجاوي ومحمَّد أبو الفضلِ إبراهيم، مكتبةُ دارِ التُّراثِ، القاهرةُ، الطَّبعةُ الثَّالثةُ، ج٢، (د . ت).

١٤- شاخت، ريتشارد: *الاغترابُ*، ترجمةُ كامل يوسُف حُسين، المؤسَّسةُ العربيَّةُ لِلدّراساتِ والنَّشر، بيروتُ، ١٩٨٠م.

١٥- شحادة، عبد العزيز محمَّد : *الزَّمنُ في الشّعرِ الجاهليّ*، المكتبةُ الوطنيَّةُ، مصرُ ١٩٩٥م.

١٦- فالح، جليل رشيد: *اللَّيلُ في الشّعرِ الجاهليّ*، مجلّةُ آدابِ الرَّافدَين، العدد (٩)، ١٩٧٨م.

١٧- مجاهد، مجاهد عبد المنعم: *الإنسان والاغتراب*، سعد الدّين للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.

١٨- المرتضي، الشَّريفُ، عليّ بن الحسين: *طيفُ الخيالِ*، تحقيقُ حسن كامل الصَّيرفيّ ومراجعةُ إبراهيم الأبياري، دارُ إحياءِ الكتبِ العربيَّةِ، ط١، ١٩٦٢م.